المآصر في بلاد الروم والاسلام

— ٣ —

لميخائيل عوّاد

(د) المآصر في كتب الأدب

لم يترك الشعراء الأوائل ناحية من مناحي الحياة ، ولا مرفقاً من مرافقها إلاّ قالوا فيه شعراً . وها إن أبا العباس عبد الله بن المعتز بالله يتطرق الى ذكر المآصر في شعر خالد له . فأنشد :

بالكرخ والميدان لي منزلٌ ... ولذّتي القفص وقطربل[1]
وخير مال لي طيارةٌ[2] ... تدبر بي في السير أو تقبل
يلاطم الماءَ مجاديفُها ... حاملةً لكنها تحملُ
غايتُها قصرُ حُمَيْدٍ وفي ... بستانِ بشرٍ دهرُها الأطولُ
وإن تجد من مأصرٍ غفلةً ... تطرْ الى كركين[3] لا تعدلُ[4]

وكان القاضي المحسّن التنوخي (المتوفى سنة ٣٨٤ هـ) ممّن نبّه الى المأصر الأسفل ، إذ سرد حكاية طويلة جاء في آخرها : « فتوجه القمّاطون والرجّالة الى الزورق فضربوه

---

(١) لك مقال : بشر بعد بعنوان « مواطن القصف واللهو في العراق » أتمّ فيه كلام على هذه الواقعة . (٢) طيارة : انظر « الذيل » رقم ١

(٣) كركين : بضم الكافين : من قرى بغداد ، كانت أحد مواطن القصف واللهو . وله أخبار في معجم البلدان (٤ : ٢٦٣) . (٤) أشعار أولاد الخلفاء وأخبارهم ، وهو الجزء الثالث من كتاب الأوراق لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي (ص ٩٨ طبعة هيورث دن في القاهرة)

بالنار ، وأقبل اللاّح يلطم ويصيح ويقول : يا قوم فيه أموال الناس . . . . وأحرقت قلوص الزورق التي كانت تربطهُ وتمسكه . . . فانحدر مع الماء لنفسه والنار تشتعل فيه ، فوقع على الجسر فقطعهُ وانحدر حتى انتهى الى موضع معسكر سيف الدولة (لعلّه ابن سيف الدولة) ، وكان نازلاً في المآصر بواسط »[1]

(٥) المآصر في كتب الإدارة والسياسة

لم نقف في المراجع التي تدخل في هذا الباب على أقدم مما ذكره القاضي أبو يوسف (المتوفى سنة ١٨٢ هـ) — صاحب الإمام أبي حنيفة — ، قال : « وحدّثنا قيس بن الربيع عن أبي فزارة عن يزيد بن الأصم عن أبي الزبير أنهُ قال : إن هذه المآصر والقناطر سُحْتٌ لا يحلّ أخذها ، وبعث عمالاً الى الذين وظائفهم أن يأخذوا من مأصرة ، أو قنطرة ، أو طريق شيئاً ، فقدموا ، فاستقلّ المال . فقالوا : نهيئنا . فقال خذوا كما كنتم تأخذون »[2]

وقد مرّ بنا غير نبأ عن المآصر الأسفل بصريفين واسط ، وها هوذا هلال الصابيء يتطرّق الى ذكره في مجرى كلامه على أحوال دار الخلافة العباسية ببغداد . قال : « . . . ومن ذلك النفقات التي تطلق في كل سنة لثمن الجوارح وكسوة الكراع ، وثمن القلوص المأصر الأسفل ، وثمن الكمأة المقددة : اثنين وأربعين الفاً وسبعة دنانير »[3]

وقبل الانتهاء من هذا الباب ، نورد أخباراً تشبه أن تكون ذات صلة وثيقة بالمآصر النهريّة . فقد ساق مسكويه في حوادث سنة ٣٣١ هـ هذا الخبر : « كان رسم مراكب ابن وجيه أن تُشدّ بعضها الى بعض بالليل في عرض دجلة فيصير كالجسر ، فلما كان في الليل ونام الناس وكلّ من في المراكب ، أشعل ذلك اللاّح السعف ، وأرسل الزورقين والنار فيهما ، فوقعا على تلك المراكب والشذاءات ، فاشتعلت واحترقت قلوسها واحترق من فيها . . . »[4]

وما من شك في أن ابن وجيه ، إنما عمد الى عمله هذا الذي ينطوي على المكر والاِبتداع ، اصطياداً للسفن المنحدرة في دجلة وسلباً لما تحمله من مالٍ وزاد

---

(١) تشوار المحاضرة (٨ : ٩٤ ، نشرة المجمع العلمي العربي بدمشق) (٢) الخراج لأبي يوسف (ص ٨٠ ، طبع بولاق) (٣) دنانير ، « انظر الذيل » رقم ٢ (٤) تجارب الامم (٦ : ٤٦)

وروى الوزير أبو شجاع في أحداث سنة ٣٨٦ هـ ما جرى عليه أمر لشكرستان بالبصرة الى أن استقرّ ما بينهُ وبين مهذب الدولة من الصلح . قال : «فاختلفت الرواية في دفعه عنها ، فقيل إنّ أهل البصرة قويت نفوسهم فوثبوا على الديلم ، وانصرف لشكرستان من غير حرب الى أسافل دجلة ، وقيل بل عقد جسراً في الموضع المعروف بالجلّ وقال : الديلم يرمون كلّ سَنَن يرد من نهر عمر . وجعل أمامه سلسلة حديد ممتدة من إحدى حافتي نهر ابن عمر الى الأخرى ليدفع عن الجسر ما يرسل على الماء من شاشيات القصب المضرمة بالنار تفوص بثقلها فتعبر الشاشيات عليها فتغرقها ، فوافى عسكر البطيحة من نهر ابن عمر وجمعوا قصباً كثيراً يعرض النهر وأدملوه مضرماً بالنار ، وجعلوا سفنهم التي فيها مقاتلتهم من ورائه ، فوقع على السلسلة وتقطعت وعلى السفن الصغار فاحترقت ، ووصل الى الجسر ، ودخل عسكر البطيحة البصرة يقدمهم ابن مرزوق وعسكره الى الجزيرة .... » (١)

وحكى ابن كثير في أخبار سنة ٦٩٠ هـ أنهُ « جاءت البريديّة لغزو العراق ، ونودي في الناس بذلك ، وعملت سلاسل عظام بسبب الجسورة على دجلة ببغداد .... » (٢)

يؤخذ مما تقدّم أن المآصر النهرية كانت منبثّة في غير مكان على دجلة والفرات ، على أن أهمها ما كان في : بغداد (وفي أعلاها المأصر الأعلى) والحوانيت ودَير العاقول ، والنعلث ، والكوفة وتريفين واسط (وعندها المأصر الاسفل)

﴿ الذيل ﴾

(١) الطيارة : ويقال فيها الطيار : ضرب من السفن النهرية القديمة ، أكثر ما اتخذ في العراق لركوب العظماء . فقد أخبرنا ابن الجوزي (المنتظم ٩ : ١٣٠) في حوادث سنة ٤٩٥ هـ ، خبر طيار شهير عرف بطيار جلال الدولة البويهي . قال أبو الفرج « وفي يوم الثلاثاء حادي عشر المحرّم جلس المستظهر لمحمد وسنجر ، واجتمع أرباب المناصب في التاج ، ونزل كمال الدولة في الزبزب وأصعد الى دار المملكة فاستدعاه فنزلا في الزبزب ، وكان الطيار قد شعث وغاب وهو الذي انحدر فيه والدهما جلال الدولة أبو الفتح ملكشاه الى دار الخلافة حين جلس له المقتدي بأمر الله ، وانحدر فيه طغرلبك حين جلس له القائم بأمر الله . وهذا الطيار كان لجلال الدولة أبي طاهر بن بويه وأنفق عليه زائداً على عشرة آلاف دينار ،

(١ : ذيل تجارب الامم ص ٢٧٢ — ٢٧٣ ، طبعة آمدروز) (٢) البداية والنهاية (١٣ : ٣٢٣)

وأهداه للقائم ، وجددت عمارتهُ في سنة سبع وأربعين ، وتشعث في أيام المقتدي فجددت عمارته وحط الى دجلة . فكان للناس في تلك الأيام من التفرجة بدجلة عجائب ، ثم هدم »

والظاهر أنهم سموه بالطيار ، لأنهُ من السفن الخفيفة السريعة الجريان ، كأنها لسرعتها تطير على وجه الماء . وقد أفاض الكلام فيها العلاّمة الطيب الذكر أحمد باشا تيمور في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٢ « ١٩٢٢ » ص ٣٢١ — ٣٢٤)

وما ذكرناهُ هنا ، وكل ما جاء عن السفن في هذا البحث ، مختصر من كتاب « السفن والمراكب في بلاد الاسلام والفرنج » من تأليف كاتب هذا المقال وأخيه كوركيس عوّاد وهو ما زال مخطوطاً

(٢) رسوم دار الخلافة (الورقة ٣٠ من المخطوط) وهو كتاب أعددناه للنشر بعد أن حققناه وعلقنا عليه ، وألحقنا بهِ فهارس مفصّلة وملاحق متنوّعة . والمقال الذي بين يديكَ أحد تلك الملاحق . طالع ما كتبناه بشأنهِ في : مجلة الرسالة (العدد ٣٦٢ ، ص ٩٧٧ — ٩٨٠) . وهناك إشارات متفرقة عنهُ في الرسالة أيضاً (العدد ٤٨٥ ، ص ٩٧٩ ٩٨١ ، والعدد ٤٨٦ ، ص ١٠٠٦ — ١٠٠٧) . والثقافة (العدد ٩٨ ، ص ٣٩ ، والعدد ١٩٨ ، ص ٥ — ٨ ، والعدد ١٩٩ ص ١٩ — ٢١ ، والعدد ٢٠٠ ، ص ١٩ — ٢٠) ، والمقتطف (٩٨ « مارس ١٩٤١ » ص ٢٤١) ، ومجلة غرفة تجارة بغداد (٤ « ١٩٤١ » ص ٢١١)

حقائق جديدة

عن الشمس

* قام الدليل في بحث مقارن بين طيف الذهب وطيف الشمس ، على وجود الذهب في الشمس

* وقام الدليل العيني كذلك على وجود عنصر الثوريوم في الشمس ، وهو من العناصر المشعة النادرة

* بدأت دورة جديدة من دورات الكلف التي تظهر على وجه الشمس ، ومدتها إحدى عشرة سنة وثلث سنة